

حسوار الأفكار



بقلم: إسماعيل متصر

خطأ مصر.. وخطيئة حماس!

للمرة الثالثة على التوالي أجد نفسي مضطراً للكتابة في موضوع.. كنت أتمنى لو لم أكتب فيه حرفاً واحداً!.. ذلك أن هذا الموضوع يمثل من وجهة نظري زلزالاً اهتزت معه الكثير من الحقائق والمشاعر.. ومن الممكن بتأثير توابع هذا الزلزال أن تتقلب هذه الحقائق وتتمزق هذه المشاعر!..

الموضوع بالطبع هو حادث اقتحام الفلسطينيين لمعبر رفح ودخولهم الأراضي المصرية ومحاولاتهم لإبقاء الحدود مفتوحة.. وما تزامن مع ذلك من حوادث تعرض فيها الجنود المصريون للرشق بالحجارة والرصاص!.. الجنود الذين سالت دماؤهم من قبل في نفس البقعة من الأرض دفاعاً عن قضية الذين يرشقونهم الآن بالحجارة والرصاص!..

وكان من الممكن أن أكتفى- على الأقل- بما كتبت من قبل.. حتى لا أساهم بدون قصد في إضفاء مزيد من الزيت على النيران المتأججة المشتعلة!.. لكنني كما قلت أجد نفسي مضطراً لأنني أرى الخطر الأعظم يلوح ويقترب!..

وليس هذا الخطر هو أمن مصر القومي كما قد يظن البعض.. فمصر قادرة على حماية أمنها.. لكنه القضية الفلسطينية نفسها التي يستعد أصحابها لتفجيرها والانتحار بها ومعها!.. وكان من الممكن أن تتوقف تداعيات الحدث وينحصر تأثيره.. لو أن الذين اقتحموا معبر رفح وفجروا الحواجز الحدودية عادوا طواعية إلى غزة بعد حصولهم على احتياجاتهم الأساسية من الغذاء والدواء والوقود.. كان من الممكن أن تغفر مصر وتسامح.

وحتى التجاوزات التي وقعت من بعض الفلسطينيين الذين دخلوا الأراضي المصرية.. كان من الممكن التعامل معها بنفس المنطق.. منطق التسامح والغفران..

القيادة السياسية في الواقع تعاملت مع الحدث بمنتهى التسامح والغفران.. وعلى الرغم من أن الرئيس مبارك كان يعلم ويدرك أن قادة حماس دبروا وخططوا لكل ما حدث.. لكنه تغاضى عن كل ذلك لا اعتبارات إنسانية تتعلق بأوضاع الغالبية العظمى من أبناء غزة الذين وجدوا أنفسهم محاصرين بالقوات الإسرائيلية ومغلوبين على أمرهم بقوات حماس!..

وبمنتهى ضبط النفس تعاملت مصر مع كل التجاوزات.. وكانت أهم وأخطر هذه التجاوزات محاولات التسلل لداخل عمق المدن المصرية التي قامت بها مجموعات من الفلسطينيين.. تم ضبطهم وفي حوزتهم أسلحة ومتفجرات..

ولم يكن أمام القيادة السياسية إلا أن تعيد تصحيح كل هذه الأوضاع المغلوطة.. والتي لا تتوقف أضرارها على مصر وإنما على القضية الفلسطينية كلها.. فمع تفجر الأوضاع بهذا الشكل ومع تدافع أبناء غزة لدخول الأراضي المصرية هرباً من جحيم الحصار.. بدأت إسرائيل تلمح إلى انفصال نهائى عن قطاع غزة في محاولة للتهرب من مسئوليتها كسلطة احتلال.. كما بدأت تردد نغمة الوطن الفلسطيني البديل في سيناء المصرية!..



مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

فى نفس الوقت ارتفعت مصر بمسئوليتها كالعادة فوق الصغائر ودعت حماس والسلطة الفلسطينية لحوار على أرض مصر.. لعل الجميع يدركون أن وحدة الصف فى هذا التوقيت هى المخرج الحقيقى والوحيد لأخطر الأزمات التى تعرضت لها القضية الفلسطينية..

لكن الاعتبار والمصالح الشخصية والأيدولوجيات الخفية وقفت كالعادة كحائط صد منيع وقوى ضد مصلحة الشعب الفلسطينى!
وفى كل الأحوال كان من الضرورى والملح أن تعيد مصر تصحيح الأوضاع وتستعيد سيادتها على أرضها وحدودها.. وعلى الرغم من تصريحات قادة حماس- التى جاءت فى الواقع على استحياء- تدعو الفلسطينيين لعدم تكرار ما حدث.. فإن المؤشرات والدلائل تنبئ بأن حماس تسعى للتصعيد وتفجير الموقف من جديد.
وهذا هو الخطر الأعظم الذى أراه يلوح ويقترّب!..

فى إطار سعى حماس للتصعيد نقرأ ونسمع عن منات من القناصة التابعين لحركة حماس.. احتلوا أسطح المنازل القريبة من الحدود المصرية.. والسؤال: أى مهمة يستعد هؤلاء القناصة لتنفيذها.. ومتى؟!..

ثم نقرأ تصريحات لواحد من قيادات حماس وهو أبو زهرى التى نقلتها وكالة أنباء فلسطين برس فنلمس إصراراً من حماس على التصعيد!..
يقول أبو زهرى فى تصريحاته للوكالة الفلسطينية إن بعض الإعلاميين المصريين يقفون جنباً إلى جنب مع الاحتلال الإسرائيلى.. فى إشارة إلى ما نشرته الصحف المصرية من انتقادات لحماس لتدبير حادث اقتحام معبر رفح ودخول الأراضى المصرية..
ويمضى أبو زهرى فى تصريحاته المعبرة عن رأى حماس الرسمى إلى ما هو أبعد من ذلك فيدعو الشعب المصرى للقيام بانتفاضة ضد حكم الرئيس مبارك!..
ويدعو أبو زهرى قادة الرأى فى العالم العربى لمواجهة الأقلام المصرية المتصهينة على حد تعبيره- لموقفها من حماس!..

ماذا تعنى تصريحات أبو زهرى؟.. وهل يمكن أن نتوقع خيراً من ورائها؟!
ثم تصريحات خالد مشعل قائد الجناح السياسى لحركة حماس الذى لا يزال يطالب مصر بفتح حدودها مع غزة بزعم أن الحدود بين الدول العربية يجب أن تبقى مفتوحة!.. كلام غريب وعجيب.. هل يطلب مشعل من سوريا أن تفتح حدودها هى الأخرى كما يطلب من مصر؟!..
هل يجروء؟!..

وربما كان الأخطر من كل ذلك ما يردده بعض قادة حماس من أن الحدود المصرية الحالية ليست هى الحدود المتعارف عليها وإنما هى حدود غير صحيحة.. فى إشارة إلى أن جزءاً من أرض سيناء تعتبر جزءاً من أرض فلسطين!..
مثل هذه المزاعم تدخل بالطبع تحت بند الوقاحة.. لكن المسألة ليست مجرد كلمات نصف أصحابها بالوقاحة وإنما هى أفكار ونوايا تعطى مؤشرات ودلائل خطيرة للغاية!..
ويشهد شاهد من أهلها!..

نشرت جريدة الوفد تصريحات لقائد كتائب شهداء الأقصى حسن القصاص يقول فيها إن جماعة الإخوان المسلمين بمصر شاركت فى عملية هدم السور الحدودى بين مصر وغزة.. وأن التخطيط لهدم السور الحدودى بدأ منذ ثلاثة شهور.. وخلال هذه الفترة زرعت حماس عبوات ناسفة أسفل السور حتى تتمكن من تفجيره مرة واحدة..
ويكشف القصاص الستار عن اللقاءات التى تمت بين قيادات الإخوان وقيادات حماس فى غزة قبل تفجير السور بأيام قليلة.. ويؤكد أن قيادات الإخوان دخلت غزة عن طريق البحر



مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

الأبيض المتوسط.

وإذا كانت تصريحات القصاص تؤكد أن ما حدث كان متعمداً ومديراً.. فإن الأخطر من ذلك ما أضافه إلى تصريحاته عن نوايا حماس.. فهو يؤكد أن حماس تعتزم تكرار عمليات اقتحام الحدود المصرية لأنها تريد تصدير أزمته إلى مصر في محاولة لامتصاص غضب أهالي غزة المحاصرين منذ ثمانية شهور!..
ماذا نتوقع من كل ذلك؟!..

لعل أخطر ما سينعكس سلباً على القضية الفلسطينية هو فقدان التعاطف المصري للقضية على المستويين الشعبي والرسمي.. ولست في حاجة للتأكيد على أن الدعم المصري للقضية الفلسطينية هو أحد الأسباب القوية التي استمرت معها القضية مطروحة على الرأي العام العالمي.. بل إنني لا أبالغ لو قلت إن القضية الفلسطينية كانت ستتآكل.. وهو ما تسعى إليه بالفعل إسرائيل.. لولا دعم ومساندة مصر لها..

في نفس الوقت فإن ما تسعى إليه حماس ومحاولاتها وإصرارها على استمرار فتح الحدود مع مصر سيؤدي إلى إعطاء إسرائيل المبرر أمام المجتمع الدولي لاستمرار سياساتها القمعية تجاه الفلسطينيين بدعوى أنها تحافظ على أمنها.. والمجتمع الدولي في الحقيقة.. شننا أو لم نشأ.. يقف موقف العداء من حماس لإصرارها على انتهاج سياسة الرفض لأي محاولة للتفاوض مع إسرائيل.. والأخطر أن موقف المجتمع الدولي من حماس يمكن أن يمتد

ليشمل كل الفلسطينيين على اختلاف توجهاتهم..

ثم إن الفلسطينيين إذا ما أصرت حماس على سياستها وتصعيد أزمته مع مصر سيجدون أنفسهم في أضعف موقف لهم.. وفي هذه الحالة تستطيع إسرائيل أن تفرض كل ما تريده من شروط ويجد الفلسطينيون أنفسهم مضطرين للقبول بدولة تابعة لإسرائيل وواقعة تحت هيمنتها الكاملة..

أضف إلى هذا كله أن معاناة الفلسطينيين لن تتوقف وحجم المأساة سيتضاعف!..

هل أخطأت مصر بتسامحها؟!.. هل أخطأت بسكوتها أكثر من اللازم؟!.. هل كان يجب أن تقف بحزم وحسم أمام خطط ومخططات حماس خاصة وأنها تعلم الهدف الحقيقي من ورائها؟!..

هل أخطأت مصر لأنها أبقت الجسور مفتوحة وممتدة مع حماس بعد أن قامت بحركتها الانفصالية عن السلطة الفلسطينية؟!.. البعض يرى أن مصر أخطأت.. أخطأت في حق أمنها ونفسها وسيادتها..

أما حماس فإنها لم تخطئ فقط ولكنها ارتكبت الخطيئة.. في حق شعبها وفي حق الذين ساندوها ودعموها..

والفارق كبير بين الخطأ.. والخطيئة!..